الفصل الثانى

سـقوط آدم

١ ـ القصـة فى سفر التكوين :

يصـور الكاتب اليهودى عن طريق القـاء قليل من الضـوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحيـاة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها . هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهنـاك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقـد كان هـذا عصر البراءة .

ولكن هذه الحيـاة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس . وينتقل الكاتب فجأة من قصـة خلق حـواء ، وتقـديمها لآدم ؛ ليحكى لنـا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقـدانهما للبراءة ، وطردهما من جنـة عـدن ، وما قدر لهما هما ونسلهما من بعد من العمل والحزن والموت . ففى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائـلا : « وأما شـجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » [1] ، ولكن الحية كانت ماكرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها . فذهبت الحيـة الى حواء وأغرتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك .

---

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ .

وما كادا يتذوقان الثمـار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقـة وأدركا أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزى والارتباك ، بغطاء من أوراق التين : وفى هـذه اللحظـة ولى عصر البراءة الى غير رجعة • وبعد أن خفت وقدة حر الظهيرة ، وانتشرت الظلال فى ربوع الجنـة ، أخـذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، فى ساعة العصر الرطبة • وسمع الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهى تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمـكن لأوراق الشـجر فى الجنـة أن تتساقط) • فاختبأ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجـل من أن يراهما عاريين • فصاح بهما الرب أن يخرجا من خلف الأشجار • ولمـا علم من الزوجين الخجولين أنهما قد عصـيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة ثارت ثورة غضبه ، ولعن الحيـة ، وحـكم عليهما بأن تزحف على بطنها ، وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانسـان الى الأبد ، ولعن الأرض وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد أولادها فى ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه ، أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعـود فى نهاية حياته الى التراب ، كما خلق من التراب • وخفت ثورة غضـب الرب بعد أن نطق بهـذه اللعنات المتعددة • ومع ذلك فان الرب الغاضـب ، بل الرءوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حـد ما ، وصـنع لها رداءين من الجلد ، ليرتدياهما بدلا من الغلالات المصـنوعة من ورق التين • أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خـلال الأشجار فى رداءيهما الجديدين والخزى يشـيع فى وجهيهما ، فى حين كانت الشمس تختفى شيئا فشيئا جهة الغرب ، والظلال تتراكم فى الجنـة المفقودة •

ان كل حدث فى هـذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ، فهى تقف مع الرجل والمرأة والحيـة الناطقة ، فى بؤرة المأساة الكبيرة ، اذا أمكن لنا أن نقول هذا • على أننا أمعنـا فى النظر ، فاننا نجـد شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وسـط الجنـة ، وهـذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة

التى تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلـود • ومع ذلك فان هـذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصـة السـقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هـذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حـدث مع شجرة المعرفة ، فان أحـدا من الأبوين لم يفـكر فى قيمة تناول شىء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شـجرة الحيـاة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التى تقف بامكانيتها غير المحـدودة مهملة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شىء • وقـد خشى الرب بعـد أن أصـبح الانسان صنوه فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شجرة الحيـاة ، ولذلك فقـد أسرع بطرده من الجنـة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لتحرس الشـجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحـد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حـول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنـة السعيدة تطلعنا عنـدما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنـة عدن الى الأبد ، ويتحـول نهارها الى نهار عادى ــ تطلعنا على شجرة الحيـاة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضـوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المسلم به بوجه عام ، فيما يبـدو ، أن حـكاية الشجرتين قـد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحيـاة لم تلعب فى الحـكاية الأصـلية هـذا الدور المثير السلبى الصرف الذى لعبتـه فى هـذه الحكاية • ومن ثم فقـد اعتقـد البعض أنه كان هنـاك فى الأصـل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حـدة ، كما صـورت فى الأخرى شجرة الحيـاة منفردة ، وان كاتبا مزج بين الحكايتين فى غير حـذق ، وجعل منهما حكاية واحـدة • وعلى

حين احتفظ باحداهما فى شـــكلها الأصـــلى على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقـــد هؤلاء ، ولكن ربما استطعنا أن نجـــد حلا لهـــذه المشكلة بطريقة أخرى • —

فالهدف من حـــكاية السقوط ، فيما يبـــدو ، هو محاولة لتفسير فناء الانسان ولتقـــديم السبب الذى من أجله أصبح الموت جزءا من كياننا الدنيوى • حقا ان القصـــة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقـــد هـــذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحـــكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحـــد الأمرين ، ذلك أن شجرة الحيـــاة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ، وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيـــدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هـــذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنـــة فيما عـــدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضـــح اذن أن الرب ، بغرســـه شـــجرة الخلود فى الجنـــة ، وعـــدم منعه آدم من يأكل من ثمارها ، كان يهـــدف الى أن يجعـــل للانســـان الخيـــار أو على الأقل يتيح له الفرصـــة ، لأن يكون خالدا ، ولـــكن الانســـان ضـــيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فنـــاء لا شجرة معرفة ، وأن مجرد تنـــاول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هـــذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليـــوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء

على ذلك ، يمكننا أن نفترض أن القصة الأصلية أشارت الى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة الفناء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصحه أن يأكل من شجرة الحياة وحذره من أن يأكل من شجرة الفناء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحية ، أكل من الشجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه له •

ومن شأن هذا الافتراض أنه يوجد — على الأقل — نوعاً من التوازن بين دور الشجرتين فى القصة ، وأن يكسب القصة بوصفها كلا الوضوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقدم حلا لضرورة افتراض وجود قصتين أصليتين متميزتين مزج بينهما كاتب سقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر عمقا ، يصور السلوك الالهى فى صورة مقبولة ، فهو ينزهه كل التنزيه عما أثير عن حقده وحسده ، فضلا على الجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصة سفر التكوين — بقعة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهذه القصة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا ، ورغب فى أن يستبقى هذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصبح الانسان مناوئا لخالقه ، اذا ما استحوذ على أحدهما أو كليهما ، الأمر الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال • ومن ثم فقد حذر الانسان ، وفقا لهذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكترث الانسان لهذا التحذير ، طرده الرب من الجنة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا • ان الدافع الذى تقدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء • وفضلا على هذا فان كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصة ، قد كان الرب بعيدا كل البعد عن

أن ينفس على الانسان شيئا ، بل انه بذل كل ما فى وسعه لكى يجعله سعيدا هانئا ، فخلق له جنـــة رائعة الجمال لينعم بها وخلق له الطيور وصنوف الحيـــوان ليأتنس بها ، كما خلق له المرأة لتكون زوجا له .

حقا ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصـــة من ناحـــة ، وبينهـــا وبين الصـــفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعـــد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصـــده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحيـــة .

على أنه مازال علينا أن نواجه هـــذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه ؟ فهـــل كان تدخلها فى هـــذا الأمر مجرد فضـــول ؟ أم أنها كانت تكن هدفا أبعـــد من هـــذا ؟ كل هـــذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة . فالحيـــة لم تغنم شيئا من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هـــذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن تزحف على بطنها وأن تعلق التراب . وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصـــة . ولكن اذا كانت القصـــة تخبرنا بأنها كانت أشـــد ميلا للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاءت حقا أن تدل على حـــكمتها بأن تطيـــح بآمال الانسان دون تحقق لنفسها شيئا منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصـــة الأصـــلية قد أثبتت لنفسها مكانا مرموقا بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاكتسبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيـــه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء . ويبدو أننـــا لسنا مغالين فى هـــذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصـــل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكا ، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروع فى قلبه ، حتى تحتفظ

لنفسها بالخلود الذى كان الانسان معنيا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيات وبعض أنواع من الحيوان تجدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها نجلدها مرة فى كل عام • ويبدو أن الشعوب السامية قد عرفت هذه العقيدة كذلك ، فالحية — وفقا لرأى الكاتب الفينيقى القديم « سانشونياثون » ، كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • واذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحية معمرة ، وأن سبب هذا يرجع الى تغييرها جلدها ، فليس ببعيد أن جيرانهم وأقرابهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه • والشىء الذى لا جدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجدد شبابها عندما تغير ريشها • واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحية كذلك يتجدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فكرة خداع الحية للانسان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهة تقصد الاحتفاظ به للجنس البشرى — تتمثل فى الواقع فى ملحمة جلجامش التى تعد معلما من المعالم الأدبية القديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قدما من سفر التكوين •

ففى هذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتيم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة سحرية على اعادة الشباب الى الانسان ، يطلق عليه اسم « الرجل الكهل يعود شابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هذا النبات ، وأصابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حية تسللت ، قبل أن يأكل جلجامش من هذا العشب ، وسرقت النبات السحرى ، بينما كان جلجامش يستحم فى المياه الباردة فى أحد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقد الأمل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحية اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربما كان حذف هذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • واذا كان شاعر الملحمة قد سكت

عن هـذا الموضوع ، فان الروايات الأخرى التى سأذكرها وشـيكا مطابقة لهـذه القصـة ، تمكننا من أن نسد هـذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هـذا فان هـذه الروايات تشير دون دليـل الى أن الحية فى الحكاية الأصلية التى أفسدها الكاتب اليهودى وشوهها، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هـذا المخلوق الماكر استغل الرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحيـة من أجل تحقيق غرضـها الخبيث فقـد زودها الاله بها لتـكون قادرة على تبليغ رسـالته الى الانسـان •

وباختصـار فاننا يمكننا أن ننتهى ، من خـلال الموازنة بين روايات هـذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الانسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب : ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجـل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى فميهما وأنفيهما — أسـكن الزوجين السعيدين فى جنـة أرضـية ، حيث عاشا متحررين من كل عنـاء ومشـقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنـة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تمرح من حولهما فى اطمئنـان لا يتسرب اليه الخوف • ثم فـكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة • ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حـكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقـدمة اليهما • ولهذا الغرض أنبت فى وسـط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احديهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها • وبعد ذلك أرسـل الحيـة برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفنـاء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم • على أن الحيـة التى كانت أكثر الحيوانات مكرا ، فكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة • فلما وصلت الى الجنـة السعيدة ، حيث

وجـدت حواء بمفردها ، قالت لها : « ان الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحيـاة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم فى اليوم الذى تأكلان فيه منها ، ولكن كلا من شجرة الفنـاء لتعيشا الى الأبد • وصدقتها المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهلكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منهـا كذلك • أما الحيـة الماكرة فقـد أكلت من ثمار شجرة الخلود • ولهـذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ ان الحيـة تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجـدد شبابها • ولو أن الحيـة لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخـدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا فى كل عام كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابا على الدوام •

ومما يزيد من احتمال أن هـذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هى الصـيغة الأصـلية للحـكاية ، مقارنتها بالحـكايات التالية التى يمكننا أن نصنفها فى يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حـكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغيير الجلد » •

٢ ــ حـكاية الرسـالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصـنع غيرهم من الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصـانه بفـكرة الخلود • فما يبدو لهم من زيادة ونقصـان فى شـكل القمـر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك واعـادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحـدث بصـفة مستمرة • بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحـاقه بميلاده وموته • فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانسـان نبأ خلوده ، وأخـذ الأرنب البرى على عاتقه أن يقوم بتبليغ هـذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للنـاس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحيـاة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحيـاة مـرة أخرى كذلك » • وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ،

اما نتيجة نسيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالى : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحياة مرة أخرى » • ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيد عليه ما قاله للناس • فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس • فلما سمع القمر منه الرسالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصا شقت شفته • وهذا هو السبب فى أن شفة الأرنب لا تزال مشقوقة حتى اليوم • ثم ولى الأرنب مسرعا عندما رماه القمر بالعصا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هذا اليوم • على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجه القمر قبل أن يهرب ؛ ولهذا فان القمر مازال يحمل فى وجهه آثار هذا الخدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صافية • ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ؛ لأنه سلبهم الخلود • وقد تعود الرجال المسنون فى هذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنا غاضبين من الأرنب ، لأنه حمل لنا هذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » • ولهذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب • فاذا خالف رجل هذا المحظور فانه يبعد عن القرية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ؛ اللهم الا اذا دفع دية ، وعند ذاك تقبله جماعته مرة أخرى •

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهذه الحكاية مع اختلاف طفيف • ففى سالف الأزمان ، وذلك وفقا لروايتهم ، قال القمر للناس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانه سيصيبكم ما يصيبنى • فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون للحياة مرة أخرى » • وسعد الجميع بهذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعدم تصديقه لهذا النبأ • فقد حدث أن توفيت أم هذا الرجل فبكاها

بعويل وصراخ ، وما من شيء استطاع أن يقنعه بأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشاجرة حامية بينه وبين القمر حول هـذا الموضوع المؤلم ، فقـد قال القمـر له : « ان أمك نائمـة ولم تمت » • فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عنـد ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفـذ صـبر القمر وضرب الرجل بقبضـة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : ان فمه سيظل مشجوجا على هـذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيمسخ حتما فى صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيـدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسـوف تعـدو الكلاب فى أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يفنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصـدقنى عنـدما طلبت منه ألا يبـكى أمه لأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيـا مرة أخرى » • من أجل هـذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن النـاس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحيـاة بعد الموت » • وهـكذا عوقب هـذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقـد مسخ فى صـورة أرنب ، وما زال ممسوخا فى شـكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا فى فخـذه بلحم انسانى • وهـذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عنـدما يذبحون أرنبا ، لا يأكلون هـذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • ومازلوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، من ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعـدنا للحيـاة بعد الموت • ولـكن ما حيلتنا فى هـذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبـره به القمر وعارضـه معارضـة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسـولا من الخالق الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صـورة أرنب ، وقـد حـكم على الجنس البشرى كله بالفنـاء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التى تسكن « أفريقيا الشرقية البريطانية »،

حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم •

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر • اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن أشربه من وعائكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » • ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشربه من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ، لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان • وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة باشمئزاز من الوعاء الذى قدم اليه ، فانه رحل والغيظ يملأ صدره وهو يقول : « سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موتة واحدة لا يعودون بعدها الى الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام • ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشرب منه اللبن • وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعدنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر • ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكننا نستدل استدلالا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة • ولكن هذا الحيوان الغافل لم يستغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ••

فى هـذه الحـكايات كلف رسـول واحـد بحمل الرسـالة ذات الشأن الخطير الى البشر • وقد أخفق الرسـول فى تأدية رسـالته ، اما بسبب اهماله أو بدافع مكره • على أن هنـاك بعض الحـكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرسـالة • وسبب ابتلاء الانسان بالموت فى هـذه الحكايات هو تأخر الرسـول فى تبليغ رسالة الخلود الى الانسـان ، أو سـوء تصرفه • ومن بين هـذه الحكايات حـكاية تروى كذلك عن قبـائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشره الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبى الى الناس وقولى لهم : انى أننى أموت ثم أحيـا بعد الموت ، فإنكم كذلك ستموتون وتحيـون بعد الموت » • فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة • وبينما كانت تزحف فى طريق ، اعترضـها أرنب برى ووقف بجانبها وسـألها : « الى أين تسيرين ؟ » • فردت عليه قائلة : « لقـد أرسلنى القمر الى النـاس لكى أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيـا بعـد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » • عندئذ قال لهـا الأرنب : « حيث انك تتعوزك الرشاقة فى الحركة ، دعينى أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرسالة » • ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة تزحف وراءه : ولمـا وصـل الى الناس غير من فحوى الرسالة التى أخـذ على عاتقه أن يبلغها الى الناس بطريق غير رسمى • فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيها : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » • ثم رجـع الأرنب الى القمـر وأعاد عليه ما قاله للناس • فغضب عليه القمر أشـد الغضـب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصـا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه • وهـذا هو السبب فى أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم •

وتحكى قبـائل « تاتى بوشمان » أو « ماسـاروا » التى تسـكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهارى » وبقـاعا فى جنـوب

روديسيا ، هذه الحكاية نفسها مع تغيير طفيف • فهم يقولون : ان أجدادهم فى قديم الزمان حكوا الحكاية التالية : لقد شاء القمر أن أرسل رسالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى • عند ذاك صاح القمر بالسلحفاة وقال لها : « اذهبى الى هؤلاء الناس وبلغيهم رسالتى • قولى لهم أنى أعيش بعد موتى فانهم كذلك سيعيشون بعد موتهم » • على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر فى أثناء الطريق حتى لا تنساها • ولكن القمر أقلقه بطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصاح بالأرنب وقال له : انك تستطيع أن تجرى فى سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيدا هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعد موتهم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ، ولكنه سرعان ما نسى مضمونها • ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فانكم حين تموتون فستموتون الى الأبد » •• وفى أثناء هذا تذكرت السلحفاة الرسالة واستأنفت سيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » • وفى النهاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة • فلما سمع الناس قولها غضبوا كل الغضب من الأرنب الذى كان يجلس على بعد منهم يقرض الحشيش • فجرى أحد الرجال ورفع حجرا ورماه به • فأصاب الحجر الأرنب اصابة مباشرة ، وشج شفته العليا • ولا تزال شفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم • وبهذا تنتهى الحكاية •

وكذلك يروى زنوج ساحل الذهب حكاية الرسولين هذه • والرسولان فى روايتهم هما شاة وعنزة • وفيما يلى صيغة الحكاية كما رواها مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » :عندما خلقت السماء والأرض فى بداية الحياة ، لم يكن على وجه الأرض بعد أثر لانسان • ثم هطلت أمطار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من السماء وقد علق بها سبعة من الرجال • لقد كان الاله قد خلق هؤلاء

الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذه السلسلة • وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم • ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فانكم لن تفنوا فناء كليا ، فلسوف ترجعون الى هنا فى السماء » • وذهبت العنزة تحمل الرسالة • وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل • فتلكأت عندها وأخذت تقرض الأشجار • ولما استبطأها الاله ، أرسل فى أثرها شاة لتبلغ الرسالة • فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، اذ أنها غيرت الرسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فانكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا فى أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هى نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » • عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلتزم به » ••

والرسولان فى رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتى » ، هما أيضا شاة وعنزة • ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك • ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا فى سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه • ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا • فقد حدث فى يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق فى الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن • ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن • ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة من الغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة • ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ولا هؤلاء النساء العجائز » •

وعلى الرغم مما حدث فقد كان الاله رحيما طيبا ، اذ أرسل من ملكوته البعيد رسالة الى الناس فى الأرض عن طريق عنزة يقول لهم فيها : « ان هناك شيئا يسمى الموت الذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم لن تفنوا فناء كليا حتى عندما تموتون ، اذ أنكم تعودون الى فى السماء بعد ذلك » • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أيكة عى قارعة الطريق أعجبها منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن العنزة تتلكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على التو • ولكن الشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفتها تحريفا كليا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ، وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ، أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « ان الاله يرسل اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ، لأنكم سترجعون اليه بعد الموت » • ولما سمع الناس كلام العنزة أجابوها قائلين : « لا أيتها العنزة : ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن نعتقد أن الرسالة التى حملتها الشاة الينا هى الرسالة الصحيحة » • وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشئوم هذا • ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه الحكاية تروى عن « الأشانتيين » • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ موته بدلا من أن تبلغه بنبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ، نبأ الموت بحماسه ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبيعى أن الموت أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • فقد أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن

يعودوا الى الحيـــاة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رســـالة الناس الى الاله • ولكنه شـــعر بالجوع فى أثناء الطريق فدخل بيتا كان صـــاحبه يغلى أعشـــابا ســـحرية ، فجلس الكلب وقال لنفســـه : « ان الرجـــل يطهو طعاما وأود أن آكل منه » • وفى أثنـــاء ذلك كانت الضفدعة قـــد رحلت الى الاله لتخبره بأن النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخـــرى بعد موتهم • ولم يكن هذا الســـلوك من قبل الضفدعة ســـوى مجـــرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحـــد قد طلب منهـــا أن تبلغ الاله هذه الرســـالة ، ولكنها ذهبت على كل حـــال • أما الكلب الذى كان يراقب فى أمـــل الحساء وهو يغلى ، فقـــد أبحر الضفدعة تجرى مسرعة أمام باب البيت • ولكنه قال لنفســـه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : « ان النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون » • ووصـــل الكلب من بعدها مبـــاشرة وقال للاله : « ان الناس يودون أن يعودوا الى الحيـــاة مرة أخرى بعد ما يموتون » وكان من الطبيعى أن يشعر الاله بالحيرة ، ورد على الكلب قائلا : « اننى لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، فسأمتثل لطلبك لا لطلبك » • وهـــذا هو السبب فى أن الناس لا يعـــودون الى الحياة مرة أخرى بعـــد الموت • ولو أن الضـــفدعة اهتمت بشئونها الخاصة ، ولم تتدخل فى شـــئون الناس لكان الأحياء يعودون بعـــد الموت الى الحيـــاة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى عندما ترعد السماء فى بداية الفصـــل الممطر بعد أن تظـــل ميتة طوال فصل الجفـــاف الذى تهب فيـــه الرياح « الهارماتانية » [1] • ومن ثم ، فانك قد تســـمع نقيق الضفدع فى المروج ، بينما تســـقط الأمطار ويدوى الرعد • وبنـــاء على ذلك فنحن نرى أن الضـــفدعة قد حرفت الرســـالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حـــرم منه الانســـان ••

---

(١) رياح قوية مترية تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال غينيا . (المترجمة)

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانسان بالموت فى هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خدعة ماكرة دبرها أحد الرسولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخرى للقصة تنتشر انتشارا واسعا بين قبائل « البانتو » فى أفريقيا ، عن خطأ ارتكبه الرسول ، بل عن تردد الاله نفسه ، الذى انتهى الى أن يكون الانسان خالدا ، ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولسوء حظ الانسان أن الرسول الذى كان يحمل رسالة الموت اليه وصل قبل الرسول الذى كان يحمل اليه رسالة الخلود • وقد قامت الحرباء فى هذا النوع من الحكايات ، بدور الرسول الذى حمل نبأ الخلود ، كما قامت السحلية بدور الرسول الذى حمل رسالة الفناء • فتحكى قبائل « الزولو » أن « أنكولونكولو » « الاله القديم » ، كلف الحرباء أول الأمر بأن تحمل رسالة للناس وقال لها : « اذهبى الى الناس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالموت » • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت تزحف فى بطء كما أنها تلكأت فى الطريق لتأكل ثمار التوت ذات اللون الأرجوانى من شجيرة « أوبو كويبيزافى » أو من شجرة التوت • ويقول بعض الناس أنها تسلقت شجرة لتستلقى فى دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت فى نوم عميق • وفى أثناء ذلك راجع « الاله القديم القديم » نفسه فى هذا الأمر وأرسل بسرعة البرق سحلية من بعد الحرباء لتبلغ الناس رسالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولى لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت السحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت الناس هذه الرسالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصلت الحرباء بعد ذلك الى الناس تحمل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصوت عال : « قد طلب منى أن أبلغكم أنكم لن تموتوا » • فرد عليها الناس قائلين : « لقد بلغتنا من قبلك رسالة السحلية ، اذ قالت لنا : « انه قد قضى عليكم بالموت السحلية » • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان « الزولو »

يمقتون السحلية ويقتلونها حيثما يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون : « انها الشيء المقيت نفسه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم أنهم سيموتون » • وبعضهم يمقتون الحرباء ويبعدونها عنهم أو يقتلونها ويقولون : « انها الشيء الحقير الذى تلكأ فى حمل نبأ الخلود الى الانسان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخلد أجدادنا ولما كان للمرض وجود عى وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرباء تسبب فى حرماننا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل « البانتو » هذه الحكاية على هذا النحو نفسه على وجه التقريب • وهذه القبائل هى : البيتشوانا والباسوتو والبارونجا والنجونى كما يبدو أن قبيلة « واسانا » التى تسكن « افريقيا الشرقية البريطانية » تحكيها كذلك • ويحكيها بتغيير طفيف شعب « الهاوسا » الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال قبيلتا « بارونجا » و « نجونى » تكنان الضغينة للحرباء حتى اليوم ،

وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح الانسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ اتركبه الرسول الذى عهد اليه الاله بتبليغ البشارة للانسان ــ قد انتشر فى أفريقيا انتشارا واسعا •

٣ ــ حكاية تغيير الجلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصة الثعابين ، يتجدد شبابها ولا تموت أبدا ، بفضل مقدراتها على تغيير جلدها فى مواسم معينة • وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ، حكايات تبين كيف اكتسبت هذه الحيوانات ، بناء على ذلك ، منحة الخلود ، وكيف حرم الانسان منها •

مثال ذلك ما تحكيه قبيلتنا « وافيبا » و « وابندى » اللتان تسكنان فى « أفريقيا الشرقية » ، من أن الاله الذى يسمونه « ليزا » هبط ذات يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلا : « من منكم يود

الا يموت ؟ » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف الحيوان ، فيما عدا الحية التى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » • ولهذا فان الانسان وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون • أما الحية فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد شبابها كما تتجدد قوتها • وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه «الدوسون» سكان « شمال بورينيو البريطانية » ، فهم يقولون : ان الخالق — حينما فرغ من خلق كل شىء — سأل الكائنات الحية : « من منكم يستطيع أن يغير جلده ؟ • أن من يفعل هذا لن يموت أبدا » • ولم يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى أجاب على الفور : « أنا أستطيع أن أفعل هذا » • ولهذا السبب فان الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان • أما « الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين •

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان «سيليبس الوسطى » أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر معهم مصيرهم • ومن بين المصائر المختلفة التى قدمها الاله ما قاله لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم » • ولسوء الحظ أن الجنس البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين سمعته الحيوانات التى تغير جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح • ومرة أخرى نجد أن أهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى « أرخبيل بسمارك » يقولون : ان كائنا بعينه يدعى « كونوكونو ميانجى » طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ، ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته ، فان جسديهما سيفنيان ، ولن يبقى خالدا سوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يولياه

أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلا : « لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ؛ أما الآن فســوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خالدة • أما الضــب « المونيكيفالوس » والسحلية « فارانوس انديكوس » ؛ والحية « اينجروس » فسوف تعيش الى الأبد ، لانها ستغير جلدها القـديم على الدوام • « ولمــا ســمع الغلامان هــذا بكيا وندما أشد الندم على ســلوكهما الأحمق فى عــدم تلبية رغبــة « كونوكونو ميانجى » واحضــار النار له •

ويحكى « الأرواك » سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطلع أحوال مخلوقه الانسان • ولكن الناس كانوا غاية فى الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق • ولهذا فقد حرمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالى والخنافس • وتحكى قبيلة « تاماناشير » ؛ وهى قبيلة هنــدية تســكن « أورينوكو » ، رواية مختلفة بعض الشيء عن الرواية السابقة • فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، اســتقل قاربا ليعبر به الى الشاطىء الآخر من البحر المــالح الشاسع الذى كان قد ركبــه اليهم • ولم يــكد يتجاوز الشاطىء حتى صاح بهم فى نغمــة مختلفة وقال لهم : « انكم ستغيرون جلودكم » • وكان يعنى بهــذا أن يقول لهم : « انكم ستجدون شبابكم كما تفعــل الحيات والخنافس » • ولسوء الحظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هــذه الكلمات ، فصرخت فى نغمة ، ملؤها الشــك ؛ ان لم تكن ملؤها السخرية ، وقالت « آه » • فتضايق الخالق كل الضيق ، وتغيرت نغمة صوته فى الحال وقال غاضبا : « انكم ستموتون » • وهــذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت •

ويحكى أهالى «نياس» ، وهى جزيرة تقع فى غرب «سومطرة» ،أن كائنا بعينه أرسل من الســماء الى الأرض التى كان قــد تم خلقهــا ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة • وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون صائما فى هذه الحالة• ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخز الجوع ، فقد

أكل بعض الموز • وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ، اذ لو كان قد أكل من سرطان النهـر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل هذا الحيوان . ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام • ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانسـان بالموت نتيجة ذلك [1] • وتضيف رواية أخرى تروى عن أهالى جزيرة « نياس » كذلك ، أن « الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد سـكان « نياس » • ولهـذا فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ••

ويلاحظ أن خلود الحيـات فى هذه الرواية الأخـيرة يعزى الى أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش الى الأبد • وكذلك يعزى خلود السمك الصدفى الى السبب نفسه ، وذلك فى رواية « ساموائية » تحكى عن أصل الموت • ففيها يروى أن الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانسـان • وأبدى أحدهم اقتراحا هو أن يغير الناس جلودهم كما يفعل السمك الصدفى وبذلك يتجـدد شبابهم • ولكن الاله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك الصدفى جلده فيتجـدد شبابه على الدوام ، فى حين يحتفظ لانسـان بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقـد المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لسـوء الحظ وعطلت مناقشة هـذا الموضوع • وفى الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لهـا عن مأوى من لمطر ، ووفق على رأى « بالسى » بالاجمـاع • ولهذا السبب فان السمك الصدفى ما زال يغـير جلده حتى اليوم ، فى حين يعجـز الانسـان عن فعل ذلك •

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبـة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بسـيطة تتمثل فى تغيير

---

(١) من المعروف أن شجرة الموز الأم تنبت الى جانبها شجيرة قبل أن تموت . وقد أصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد أن أكل منها هذا الكائن . فهو يترك أولادا من بعده وأما هو فيموت . (المترجمة)

الجلد بانتظام فى فترات ثابتة ، كانت يوما ما فى متناول الجنس البشرى ، ولكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير سعيد ، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيات وسرطان النهر والسحالى والدغناس • على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق فى وقت ما على تلك الهبة التى لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز • « فالميلانيزيون » سكان « جزر البانك » ومثلهم سكان جزر « الهبريد الجديدة » يقولون : ان الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر على الاطلاق ، بل كان الناس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم • ثم حدث بعد مرور الوقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها فى الماء • وهذه المرأة ، وفقا لما يقوله بعض هؤلاء السكان ، هى أم البطل الأسطورى « كات » ، فلما وصلت هذه المرأة الى النهر ، انتزعت جلدها القديم وألقت به فى الماء • ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبط الى قاع النهر ، بعصا • على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها • ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ فى وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة • فرجعت الأم الى النهر ، واستردت جلدها القديم ، لكى تطيب خاطر ابنها ، ولبسته • ومنذ ذلك اليوم كف الجنس البشرى عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت •

ويحكى سكان « جزر شورتلاند » وبالمثل قبيلة « كاى » وهى قبيلة من « البابو » تسكن شمال شرق « غينيا الجديدة » ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت • فقبيلة « كاى » تحكى أن الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر ، ولكن الناس كانوا يغيرون جلودهم • فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللون البنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضاء تنطق بالشباب • وفى هذه

الايام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها • وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنهـا جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت • وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحـو بكى وصرخ • وأبى أن يصـدق أنهـا هى بعينهـا جدته • وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنهـا جدته • وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القـديم المجعـد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشـكل • وسعد الوند برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : « ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسـوف نموت من الآن فصاعدا » • وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ • ويحكى سـكان « جـزر أدميرالتى » هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف • فهم يقولون انه كان فى سـالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة ، وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينمـا ذهبت هى لتستحم • وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلدا جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل • فلمـا عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : « انهـا أمنا » فرد عليه الآخر قائلا : « ربمـا كانت أمنـا ، ولكننى سأتخذها زوجـة لى » • وسمعت الأم هـذا الحـديث مصادفة ، فسألتهما قائلة : « ماذا كنتما تقولان الآن ؟ » • فرد عليهـا الولدان قائلين : « اننا لم نقل شيئا سـوى أنك أمنا » • فقالت الأم : « انكما تكذبان ، فلقد سمعت حديثكما • ولو أننى ملكت من الأمر شـيئا لكنا نكبر فى السن ــ رجالا ونسـاء ــ ثم نغـير جلودنا فنعـود فتيانا وصبايا • ولكنكما شئتما أن تتبعـا أهواءكما ، ولذلك فسـوف نكبر ونهرم ثم نموت » • وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدهـا القـديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا • ولذا فنحن سـلالتها نكبر ونهرم • ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد •

فاذا ابتعدنا عن « جزر البانك » • فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى »

وهى قبيلة جبلية تسكن « سيليبس الوسطى » تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة الى حد كبير • وتروى هذه الحكاية ــ وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشفوها منتشرة على نطاق واسع ــ على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحوما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا • وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها • وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقته على شجرة ، وارتدت جلدا جديدا • ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها • ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكترث بمقدمها ، وأخذ يقول لها : « انك لست جدتى ، لأن جدتى كانت عجوزا وأنت امرأة شابة » • فعادت المرأة ثوا الى الماء واستعادت جلدها القديم وارتدته • ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون •

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيير جلده بانتظام ، فان هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعاطف بين الانسان والقمر • فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله •

فالانسان وفقا لوجهة النظر هذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجديد ، فقبيلة « منتراس » أو « مانتراس » الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت • بل كانوا يتضاءلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن

الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هذا التزايد المطرد • ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلا : « دع الأمور تسير على ما هى عليه» •ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظـرة أكثر « مالثوسيانية »[1] من ذلك قال لأبيه : « بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها» • وعند ذاك طرح الأمر على اله العالم السـفى الذى تبنى رأى الابن الثانى • ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز •

ويرى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصـفه فترة نوم وجيزة • فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محاقا ، ثم يعودون الى الحيـاة مرة أخرى مع ظهور القمـر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم • على أن روحا شريرا دبر بعد ذلك مؤامرة لكى لا يستيقظ الناس قط عندما يغفون اغفـاءة الموت • وقد حكت قبيلة «ووتجوبالوك» وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعا فى هيئة رجال ونسـاء ، وكان بعضها يموت كان القمر يصيح بها قائلا : « هيا استيقظـوا » • وعند ذاك يعود النـاس الى الحياة مرة أخرى • على أنه حـدث ذات مرة أن قال رجل هرم : « بل ليمت الناس الى الابد » • ومنـذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحياة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيـا حتى يومنـا هذا • ويروى عن قبيلتى « أونتماتجـيرا » • و « كايتش » وهما قبيلتان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشـجار أو تحت الأرض ، وبعـد ثلاثة أيام يعود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحياة • كما تحكى قبيلة «كايتش» عن

---

(١) نسبة الى « مالثوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ — ١٨٣٤م) • وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب ان يحدد • (المترجمة)

انقضاءهذه الأيام السعيدة ، فنقول : ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه رجل ينتسب الى « الكروان » الطـــوطم ، فقد أبصر هذا الرجل بعض الرجال الذين ينتسبون الى « الكنغر الصغير » الطوطم ، وهم يسرعون فى دفن رجل من جماعتهم • ولأمر ما استشاط الرجل الأول غضبا ، وركل الجسد فدفعه الى البحر • وكان من الطبيعى ألا يعـــود هذا الرجل الى الحيـــاة بعـــد ذلك • وهذا هو السبب فى أن موتاهم لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا من قبل •

وعلى الرغم من أن هذه الحـــكاية التى تحكى عن أصـــل الموت ، لا تذكر شيئا عن القمر ، فانه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما سبق من حكايات،أن تكون الأيام الثلاثة التى تعود الميت أن يرقدخلالها فى القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هى بعينهـــا الأيام الثـــلاثة التى « يختفى فيها القمر فى كهفه الشاغر عندها يصبح محاقا » • وبالمثـــل ربط « انفيجيون »[1] بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ، وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحق حقبة من الزمن • فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله « الفأر » والاله « القمر » تناقشا فى أمر نهاية الانسان على وجه التحديد • فقال الاله « القمر » : لندع مصير الانسان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم يعود الى الحياة مرة أخرى » • فرد عليه الاله «الفأر» قائلا : « بل ندعه يموت كما تموت الفئران » • وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز •

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنغو كيف أن الانســـان فاتته هبة الخلود ، فى حين حصل عليها القمر ، فيقـــولون : ان الاله الذى يطلقون عليه اسم « ليبانزا » أرسل ذات يوم فى طلب سكان القمـــر وسكان الأرض • فخف سكان القمر الى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله

---

(١) هم سكان جزر « فيجى » وهى مجموعة جزر فى المحيط الهادى . (المترجمة)

جزاء امتثالهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ، لأنك جئت الى توا عندما ناديتك ولن تموت في كل شهر سوى يومين ، لم أقصد بهما الا راحتك ، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » . فلما مثل أهل الارض بعد ذلك أمام الاله « ليبانزا » تحدث اليهم في غضب وقال : « أما أهل الأرض ، فلأنكم لم تلبوا ندائى توا . فانكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تحدثون الى » .

ولا يربط « البأهناريون » سكان شرق « كوشنصين »[1] بين خلود الانسان البدائى وأطوار نمو القمر ، كما أنهم لا يعزونه الى تغيير الانسان لجلده ، بل يعزونه الى قدرة شجرة معينة على الشفاء . فهم يقولون : انه حينما كان الناس فى بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنون عند جذع شجرة تسمى « لونج بلو » ، ثم يبعثون فى العادة بعد مضى وقت ، لا فى صورة أطفال بل فى صورة رجال ونساء مكتملى النمو . وبذلك عمرت الأرض بالناس فى مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان .

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايدا بالغا الى درجة أن سحلية بعينها لم تكن تزحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذيلها ، فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهم : « لماذا تدفنوا الموتى عند شجرة « لونج بلوو » ؟ ادفنوهم عند شجرة « لونج خونج » فلا يعودون الى الحياة مرة أخرى . أتركو هم يموتون ميتة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى .

ونلاحظ فى هذه الحكاية الأخيرة ، كما هو الحال فى كثير من

---

(١) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع فى جنوب فيتنام وينتمى هذا الاقليم اليوم الى كمبوديا . (المترجمة)

الحكايات الافريقيـــة ، أن ســـبب ابتـــلاء الانســـان بالموت يرجع الى السحلية • ويمكننا أن نحدس أن السبب فى نسـبة هذا العمـل الذى يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شـأن الثعبـان ، تغير جلدها فى أوقات معينة من السـنة ، الأمر الذى دعا الانسـان البدائى الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغيير جلدها ، ومن ثم فهى تعيش الى الأبد • وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأســاطير التى تحكى كيف أصبحت الحيـــة أو الســـحلية

الرسول الشرير الذى حمل رسالة الفناء للانسان ، يرجع الى فـكرة قديمة عن غيرة بعينها وتنافس بين النـاس والمخـــلوقات التى تغير جلدها،وبصفة خاصة الحيات والسحالى،بل ربما افترضنا أن أى حكاية نشأت حول هذا الموضـوع ، كانت تصـور الصراع بين الانســان والحيوان الذى ينازعه الحصول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتيجة خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيـوانات التى أصبحت من بعده خالدة • أما الانسان فقد صبت عليـه لعنـة الابتلاء بالموت •

٤ ــ الحكاية التى جمعت بين الرسالة المحرفة وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التى تحكى عن أصل الموت ، بين موضوع الرسالة المحرفة وموضوع تغيير الجلد • فان «الجالا» الذين يسكنون فى شرق أفريقيا يعزون فناء الانسان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، فحرف لذلك رسالة الخلود التى عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان • والطائر الذى أخطأ هذا الخطـأ الذريع فى حق الانسان ، ذو لون أســود أو أزرق داكن ، وله بقعـــة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له تاجا على رأسه • وهو يحط على رأس قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغـاء الشـاة ، ومن ثم فان « الجالا » سمونه « هولاواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون مايبدو على هذا الطائر من حزن من خلال الحكاية التالية •فقد أرسل الاله هذا

الطائر ذات مرة الناس ليخبرهم أنه لا ينبغى لهم أن يموتوا ، وانما ينبغى أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك يتجدد شبابهم • ولكى يضفى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التى كلفه الاله بها • وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسان نبأ الخلود السعيد • على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل جيفة • فنظر الطائر الى الجيفة بشهية بالغة وقال للحية : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » • فردت الحية عليه بجفاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » • ثم استأذنت أكلها ، ولكن الطائر أخذ يلح عليها فى أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى كل شىء من التردد • عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالآتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون بعد أن يبلغ بهم العمر مبلغه ، فى حين أن الحيات بتجدد شبابها على الدوام بتغيير جلدها • وقد عاقب الاله هذا الطائر المهمل أو الأحمق بسبب تحريفه المبالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدى وبيل ما زال يعانى منه حتى الآن • وهذا هو السبب فى أن الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل • وبالمثل يحكى «الميلانيزيون» الذين يسكنون ساحل «شبه جزيرة الغزال » فى نوبريتين » أن « توكامبينا » الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن يجعلهم خالدين • فاستدعى أخاه « توكورفوفو » وقال له : « اذهب الى الناس وافش لهم سر خلودهم • قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حياتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتما من الآن فصاعدا » • على أن كورفوفو » لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات • ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشر فانيا ، فى حين أصبحت الحيات تغير

جلدها مرة فى كل عام ؛ ولهـذا فانهـا تعيش الى الأبد • وتروى فى « أنام »•(١) حكايات عن أصل الموت شبيهة بالحـكايات السـابقة • فهناك يقول الأهالى : ان « نحبك هوانج » أرسل رسالة من السـماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ؛ وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم • فلما هبط الرسول الى الأرض أبلغ الناس الرسالة صحيحة بحق • فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع فى اللحد» والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما رام • ولكن لسـوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول • فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببنى جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » • فخاف الرسـول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالى : « اذا كبرت الحيات فانها سـتغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضـع فى اللحد » • وهذا هو السبب فى أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانهـا تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهى تعيش الى الأبد •

خاتمة :

وهـكذا نرى أن الفليسوف البدائى ــ قياسا على حـكايات القمر أو حكايات الحيوان الذى يغير جلده ــ أشار الى أن كائنا طيبـا قد وعد أبناء الجنس البشرى فى بداية الحياة بهبة القـدرة على تجـديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا • ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم• أما الشعوب التى تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغيير الحيـات أو السـحالى أو الخنافس أو ما أشـبه ذلك لجلـودها فهى تنظـر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغيضا سلبهم الارث

---

(١) يعد هذا الاقليم اصل فيتنام . (المترجمة)

الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا • ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيدة لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذىلا يقدر بثمن • وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبيرا فى أنحاء العالم، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية • ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفر التكوين ، تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم • فالجزء المحذوف فى الحكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ، هو الذى يتمثل فى سكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحياة ، وما نتج عن ذلك من حصول هذا الحيوان الدنىء على الخلود • على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوهها ، قد شكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية • وقد استبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كلية من القصة العبرية • ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارسين الذين أخذوا يجيلون النظر ، فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبه الحية فى القصة العبرية • واذا كان تفسيرى للقصة العبرية صحيحا فاننى أدعه للمنهج المقارن لكى يبسد الفجوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائية ، بالألوان البربرية المرحة التى خففت من حدتها أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة •